الكيان البشري وتعدد الابعاد

لطالما احببت التأمل في الكيان البري، هذا الكيان الغامض الذي كلما غصت في اعماقه تكشفت اسرار ما عرفتها قبل الان. في كل رحلة غوص في هذه الاعماق السحيقة الابعاد وجدت معان جديدة وحقائق ما عرفتها قبلا.

وفي اخر تأمل لي كان التعرف الى ابعاد الانسان، تعددها وتباينها. هذه الابعاد هي تلك النافذ التي يطل من خلالها الانسان على العالم الخارجي، بهدف الاتصال بما هو خارج عن كيانه، لاكتساب الجديد.

رحت اتأمل في هذه المنافذ التي تصل الانسان الداخلي بالعالم الخارجي... ولشدة دهشتي رايتها تتباين فيما بينها، ويختلف بعضها عن البعض الاخر. فكل بعد يقدم شيئا مغايرا عما يقدمه البعد الاخر للانسان ووعيه. لكني لم اعرف سبب هذا التباين الظاهري، حتى توصلت اليوم الى حقيقة الامر حين نظرت الى الاشياء من بعيد، من خارج نطاقها المادي؛ ففهمت كل الاسباب.

قبل التكلم عن اكتشافي هذا، اعرفكم اولا الى ما اكتشفته في الانسان من اختلاف الابعاد.

في الانسان عدة منافذ يطل عبرها على العالم الخارجي. هناك الحواس الخمس، عالم المشاعر، عالم الافكار، وعالم الادراك (الوعي)، فالانسان يستطيع التعرف الى شيء ما اما عن طريق الحواس او المشاعر او الافكار او الادراك.

لكن الغريب في الامر ان الرسائل التي تؤديها هذه المنافذ الى الانسان تختلف وتتباين فيما بينها. فرسالة الحواس تختلف عن رسالة المشاعر...فالبصر مثلا ينقل شكل الشيء، والسمع صوته، بينما المشاعر تنقل احساس الشخص تجاه ذلك الشيء... فافكاره تخبره حقيقة الشيء بالمقارنة بتجربة سابقة في هذا الصدد. بينما ادراكه يجمع كل هذا بلحظة عابرة وينقل الرسالة الى وعي الانسان عن طبيعة ذلك الشيء.

ويبقى السؤال: لم الاختلاف في نقل الرسائل احيانا؟ فلطالما اخطأ البصر، او السمع في ايصال احدى الرسائل... ولطالما اختلف الذوق مع الشم في نقل رسالته! الا تلاحظون ان رائحة شيء ما تختلف كل الاختلاف عن مذاقه؟! الا تلاحظون ايضا انكم قد تعجبون لشكل شيء ما، وما ان تقتربون منه حتى ينتابكم شعور غريب برغبة في الابتعاد... وهو احساس ينافي شعوركم الاول؟! او انكم تكونوا فكرة عن شيء ما حين ترونه من البعيد، وحالما تلمسونه، او تعون حقيقته تجدون ان تلك الفكرة التي تكونت عنه سابقا كانت خاطئة!

ثم، ليتأمل المرء في افكاره، الا يجدها تختلف عن مشاعره؟!... كم من مرة اتخذ المرء قرارا وغيره لاحقا، بعد ان تدخلت عواطفه ومنعته من المضي فيه.

او كم من مرة اسلم الشخص نفسه لهوى عواطفه وما لبثت افكاره ان تدخلت وحسمت الامر.

لم هذا التباين في الاستيعاب؟ لم الاختلاف في نقل تلك الرسائل وفهمها؟

هذا ما لم ادركه الا حديثا، حين ارتفعت فوق كل تلك الابعاد، اي فوق معانيها، مغازيها، واهدافها... فرايت الصورة واضحة. لقد ادركت ان الاختلاف يولد الانسجام، وان الكثرة تؤدي الى الوحدة. فمن خلال هذا الاختلاف الذي يعيشه المرء كل يوم وكل لحظة، ينشأ نوع من التناغم الذاتي بين جميع هذه الابعاد. لكننا لا نعيه... الامر الذي يدعو في النهاية الى تكامل هذا الكيان البشري. والهدف الابعد هو ايصاله الى الانسجام الداخلي، ومن ثم الى الوحدة في نفسه.

ومن البديهي القول ان ما لم يع الانسان الكثرة او الاختلاف، لن يعي الوحدة او الانسجام او من خلال هذا التباين سيبحث الانسان عن الانسب والافضل، سيتعلم كيف يفكر، كيف يمرن حواسه على استيعاب الحقيقة من دون اللجوء الى الاجراء نفسه في كل مرة. وسيتعلم ان يضع نفسه وسط كل هذه الاراء المختلفة ليفكر في النتيجة الحقيقية، وفي افضل استنتاج لاتخاذه واعتماده.

كل هذا سيؤدي به الى التمييز، الى الانسجام، ومن ثم الى الوحدة... شرط ان يعرف المرء كيف يناغم ويوحد بين مكوناته الباطنية. فمهمة الانسان ان يحاول التوفيق والتقريب بين جميع هذه الاراء، ويبحث عن القاسم المشترك فيما بينها، يبحث عن النواقص في كل منها ليكملها بعضها ببعض.

من جهة اخرى، بعد هذا التناغم والانسجام في جميع مكونات الانسان الباطنية، سيتمكن من الوصول الى الراي الصحيح، والى الحقيقة القابعة وراء كل الاشياء. لان الحقيقة تقبع في الوحدة، عن طريق التناغم والانسجام. اما الاراء المختلفة او الابعاد المتباينة، فان بقيت على حالها فانها لا تؤدي الا الى الضياع والصراع الداخلي.

وواجب الانسان الواعي ان يتغلب على هذا الصراع الداخلي ليصل الى السلام الداخلي، في كنف السكينة الروحية.

اسعد سيف

٧١ / ١١ / ٨ / ٩٢